مراعاة المخاطب في الاحكام النحوية في كتاب سيبويه

د . كريم حسين ناصح الخالدي
كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد

من المسلم به في الدراسات اللغوية ان الافكار تنتقل من المتكلم الى السامع بإشارات أو بمقاطع سوطية،
او بألفاظ متعارف على دلالتها، مؤتلفة في نظم تركيبية مختلفة باختلاف المعاني المقصودة التي يسعى المتكلم الى إيصالها الى السامع.(١)

وقد سعت اكثر المدارس اللغوية الحديثة الى دراسة الحالات المختلفة لعناصر العملية اللغوية، واظهرت اهتماماً كبيراً بالجوانب النفسية والاجتماعية لكل من المتكلم والمخاطب. أذ ادرك علماء المدرسة اللغوية الاجتماعية اهمية الموقف او لمناسبة او المقام في الدرس اللغوي، ودرسوا العناصر المؤثرة في كيفية قول الكلام، وفي تركيبه، وفي معانيه، وفي الغرض من قوله.(٢)

ودرس اخرون العلاقة بين المتكلم والسامع، وما يمكن ان يثيره الكلام من فَهْم او لَبْس، وما يخامر ذهن كل من المتكلم والسامع من افكار تقرر صياغة الالفاظ والعبارات.(٣)

وحاول عدد من الباحثين العرب الخوض في هذا الموضوع متأثرين بما ذهب اليه علماء المدارس الغربية الحديثة، او مستقين آراءهم من كنوز تراثنا العربي. اذ يلخص المسدي رأيه في الكلام قائلاً:

« وهو قصد للفائدة حيث ان علة الحدث الابلاغي وغايته لا تتمثلان الا في ايصال شحنة دلالية ، لتتحقق عملية الاخبار بين طرفي الحوار . وهو قصد للمتقبل بما ان المتكلم لا يبث خبره الا وهو مرسل اياه لمن يتجه به اليه سواء انحصر عدداً ام اتسع ام استعصى عن الحصر ولا يمنع شيء من ذلك انه مقصود بالخبر »[٤]

ولاحظ الدكتور نهاد الموسى أنّ عناية سيبويه بوصف المقام وحال المخاطب وحال المتكلّم وموضوع الكلام قد هدته الى استكناه (البنية الجوانيّة) للتركيب النحويّ ، ورسم خطوط هادية في تعلّم العربية تعلّماً يضع كلّ تركيب في موضعه ويصف لكلّ مقال مقامه .[٥]

واستنبط الدكتور مهدي المخزومي من التراث النحوي العربي ان السياق والمقام يؤثران كثيراً في فهم الجملة فقال إنّها « خاضعة لمناسبات القول وللعلاقة بين المتكلّم والمخاطب ولا يتمّ التفاهم في أية لغة إلّا اذا روعيت تلك المناسبات ، واخذت العلاقة بين اصحابها بنظر الاعتبار ولن يكون الكلام مفيداً ولا الخبر مؤدياً غرضه مالم يكن حال المخاطب ملحوظاً ليقع الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول » .[٦]

فالنظراللغوي الحديث يعدّ موضوع الحال أو المقام والمخاطب من المجالات الدلالية والمعنوية الحديثة ، توصلّ إليها علم اللغة الحديث ضمن دراسته اللغة في ضوء نتائج البحث في علم الاجتماع وعلم النفس[٧] ، ويعتقد عدد من الباحثين أنّ البلاغيين فقط من القدامى كانوا يعنون بهذا الجانب .

ويعتقد هؤلاء أنّ البحث في المقام واحوال المخاطب من اختصاص علم البلاغة لما عرف عندهم من دراسات عمّا يُسمّى (مقتضى الحال) وهو امر لا نشك بصحته ، فهذا الموضوع لقي اهتماماً من لدن البلاغيين عند دراستهم لبلاغة القول ، فقد عرّفوا البلاغة في الكلام بأنّها « مطابقته لمقتضى الحال ، ذلك أنّ مقاماته متفاوتة فمقام كلّ من التنكير ، والاطلاق ، والتقديم والذكر ، يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكيّ مع خطاب الغبيّ ، ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام وارتفاع مستوى الكلام ، في الحسن والقبول ، بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدمها ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب » .[٨]

غير اننا نزعم ان الذي ذهب اليه البلاغيون لا يختلف كثيراً عمّا كان معروفاً عند النحويين الاوائل فهم أوّل من قال بمراعاة الاحوال المحيطة بكلٍّ من المتكلّم والمخاطب كما سنرى في تفاصيل هذا البحث وهم الذين وضعوا اللبنات الاولى لهذا الجانب المعنوي مؤكدين في دراساتهم على حال المخاطب وعلاقاته وظروفه المحيطة به ولكن هذه الملاحظ جاءت باشارات ، او تلميحات ، واحيانا بالتصريح والتوضيح ، وهذا يدل على أنّهم كانوا يحيطون علماً باهمية وصف الحال التي يكون عليها المخاطب واثر ذلك في كثير من الاحكام ، وكانوا يدركون أنّ كثيراً من الاحكام إنّما تكون استجابة لما يكون عليه المخاطب .

وقد ادرك عدد من العلماء الذين طوّروا الدرس النحوي وتعمقوا في فهم جوهر النحو اهمية البحث في العلاقة بين اطراف الكلام لايصال المعاني بدلالات . وللجرجاني القدح المعلّى في هذا المضمار فهو يقول « الدلالة على الشيء هي لا محالة اعلامك السامع إيّاه ، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولًا عليه ، واذا كان كذلك وكان ممّا يعلم بمدارك المعقول أنّ الناس إنّما يكلّم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده ، فينبغي ان ينظر ان المقصود المخبر من خبره ، وما هو ؟ اهو ان يعلم السامع وجود المخبر به من المخبر عنه أم أنْ يُعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه ؟ »[٩]

وهذا القول ينبيء بأنّ الفكر العربي قد تخطى حدود الشكل في الدرس النحويّ وأنّ علماء النحو أرسوا دعائم معنوية عبّرت عن مقاصد المتكلمين في الميادين المختلفة ومنها التي يدّعي المحدثون أنّهم قد ابتكروها أو خاضوا فيها لأوّل مرّة ، لذا حاولت في هذا البحث الموجز أنْ اكشف عن اوجه اهتمام النحويين الاوائل بالطرف الثاني للكلام وهو المخاطب . فاتّجهت الى اقدم كتاب نحويّ وصل الينا ، وهو كتاب سيبويه لاستجلي منه وجوه مراعاة المخاطب واحواله في الاحكام النحوية محاولًا استقراء ذلك من نصوص الكتاب مقتصراً على مضامينها ، متوخيّاً من وراء ذلك عرض وجه مشرق من وجوه مناهج البحث النحوي القديم .

مراعاة حال المخاطب :

اولى سيبويه حال المخاطب اهتماماً ملحوظاً تجلّى في اشارات أو عبارات صريحة عبّرت عن تلك الحال بوصفها او الاخبار عنها ، اوايضاح ما يقتضيه ذلك من تلاؤم مع الحكم الذي يسوقه ، وانسجام مع التوجيه الذي يوجه به ، وأوّل ما يلفت النظر في كتابه تشخيصه لحال المخاطب من حيث الاقبال والانصات ، ذلك أنّ إقبال المخاطب على المتكلّم وتنبهه له ، وإصغاءه اليه ، ذو أثر كبير في نفس المتكلم ، لإيصال ما يريد إبلاغه الى السامع ولكي يتيقن أنّه وعى ما ذكره بفهم وادراك ، وقد يصل الامر الى حد الاستعطاف اذا علم ان مجرد السماع لا يغني . وهذا الامر اوضحه النحاة بتفصيل فيما بعد وحسبنا أن نذكر ما قاله ابنّ جني لبيان أهمية إقبال المخاطب « أولا تعلم أنّ الانسان إذا عناه أمر ، فاراد أنْ يخاطب به صاحبه ، وينعم تصويره له في نفسه ، استعطفه ليقبل عليه ، فيقول له : يا فلان أين أنت ؟ أرني وجهك ، أقبل عليّ أحدثك ، أما أنت حاضر يا هناه ، فاذا أقبل عليه ، واصغى إليه ، اندفع يحدّثه ، أو يأمره ، أو ينهاه ، أو نحو ذلك ، ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه والاصغاء اليه »[١٠]

فالمتحدّث لا يريد سماع المخاطب فقط بل يسعى الى تحقيق اقباله ليكون وجهاً لوجه معه ، مقبلًا عليه بكلّ جوارحه ، لانّ ذلك من اداب الحديث التي ينبغي أن يُربّى المرء عليها ، ويُحسن التعامل بها ، وقد عوّل سيبويه على هذا الاقبال في مسائل كثيرة ، وعلّل به كثيراً من الاحكام ، ومن ذلك أنّه لاحظ أن لفظ (رويد) تقع للواحد والجميع ، والذكر والانثى ، لكنّها تدخل عليها أحياناً الكاف لتبيين حال المخاطب الذي سمّاها (المخصوص) فقال معلّلًا دخولها « فلحاق الكاف كقولك (يا فلان) للرجل حتى يقبل عليك ، وتركها كقولك للرجل (أنتَ تَفْعَل) اذا كان مقبلًا عليك بوجهه منصتاً لك ، فتركت يا فلان حين قلت : أنتَ تَفْعَلُ ، استغناء بإقباله عليك ، وقد تقول أيضاً : رويدك : لمن لا يخاف أنْ يلتبس بسواه ، توكيداً ، كما تقول للمقبل عليك المنصت لك : (أنتَ تَفْعَلُ ذاك يا فلان) توكيداً ، .... ولو لم تلحق الكاف كنت مستغنياً كاستغنائك حين كان المخاطب مقبلًا عليك عن قولك : يا زيد »[١١]

فإقبال المخاطب على المتكلم يجعل دخول الكاف على (رُوَيْدَ) توكيداً في الكلام لأن المخاطب اذا كان في حال إقبال لم تكن به حاجة الى ضمير الخطاب ونظير هذا قولهم في باب الاختصاص أمّا أنا فافعل كذا وكذا أيّها الرجلُ ، ونَفْعَل نحن كذا وكذا أيّها القومُ ، وعلى المضارب الوضيعة ايها البائع ، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، فإنّ ذكر أداة النداء ليس لغرض التنبيه لانّ المخاطب مُقبل على المتكلّم ، تنبه اليه ، ولكنّه يذكر (أي) توكيداً ، لانّ غايته الاختصاص ، وليس طلب الاقبال ، قال سيبويه « ولكنّه أكد كما تقول للذي هو مُقبل عليك بوجهه مستمع مُنصت لك ، كذا كان الامر يا أبا فلان توكيداً ، وتدخل (يا) ها هنا لانّك لستَ تنبّه غيرك »[١٢]

وتشبيهه لحال عند اللفظ بـ (رُوَيْد) بحاله في النداء والاختصاص يدل على ادراكه أهمية إقبال المخاطب في هذه المواضع ، ويعرب عن تلك الاهمية في ملاحظته بوضوح أنّ الكلام يجري بين متحدث ومخاطب وأنّ هذا المخاطب ينبغي أنْ يكون مقبلًا عليه متنبّهاً لما يقوله لانّ الكلام لا جدوى منه إنْ لم يكن له مستمع يعيه ، ويدرك غايته ، لذا قال سيبويه « لانّ أوّلَ الكلام أبداً النداء ، إلّا أنْ تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك ، فهو أوّل كلّ كلام لك ، به تعطف المكلّم عليك ، فلمّا كثر ، وكان الاوّل في كلّ موضع حذفوا منه تخفيفاً ، لانهّم ممّا يغيّرون الاكثر في كلامهم »[١٣]

ويتضح إدّراك سيبويه لهذه العلاقة بين المتكلّم والمخاطب في حديثه عن الحروف التي يُنبّه بها وهي (يا ، وأيا ، وهيا ، وأيَ ، والالف) فالمتامّل في هذه الحروف يجد أنّ لكل منها قدرةً ومدى في مدّ الصوت فالالف غير كلٍّ من يا ، وهيا ، وأيَ وأيا) ذلك أنّ الصوت بالهمزة لا يحتاج الى مدّ في حين تتفاوت درجة إطالة الصوت في الحروف الاخرى لتناسب طبيعة الحياة البدوية التي يكون فيها المخاطب بعيداً أحياناً لذا يمدّ المتكلّم صوته لينبّهه ويقبل عليه قال سيبويه « إلّا أنّ الاربعة غير الالف قد يستعملونها اذا أرادوا أن يمدّوا اصواتهم للشيء المتراخي عنهم ، والانسان المُعرِض عنهم ، الذي يُرون أنه لا يقبل عليهم إلّا بالاجتهاد ، أو النائم المُستنقل ، وقد يستعملون هذه التي للمدّ في موضع الالف ، ولا يستعملون الالف في هذه المواضع التي يمدّون فيها ، وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة ، غيروا إذا كان صاحبك قريباً منك عُليك توكيداً »[١٤]

وفسّر ذلك ابن السراج بأنّ أصل النداء تنبيه المدعو ليقبل عليك[١٥] وهذا الايضاح لحال المخاطب يفسّر ما ذكره سيبويه عن الاجتهاد لتحقيق اقباله ، إذ من المعروف أنّ النائم الذي اثقل النوم أو النعاس أجفانه ، أو المعرض الذي ينشغل في شأن آخر ، أو البعيد الذي يجد المتكلم مشقة في إبلاغه بما يريد ، يحتاج كلٌ منهم الى مد في الصوت وهو ما تؤديه الاحرف هيا . أيا ويا وأي أمّا الالف فينادون بها مَنْ كان مقبلًا ، أو قريباً ، نحو (أزيدُ لا تلعبْ) .

أمّا في التعجب والاستغاثة فحال المخاطب في كل منهما مما ينبغي طلب إقباله قال سيبويه « وأما المستغاث فـ (يا)

لازمة له ، لانه يجتهد ، فكذلك المتعجب منه وذلك يا للناس ، ويا للماء ، وإنّما اجتهد لان المستغاث عندهم متراخٍ أو غافلٌ ، والتعجّب كذلك لانهم يحتاطون ويدعون ما قد فات وبعُد عنهم »[١٦].

وحالة التراخي او الغفلة تنتاب المخاطب فلا يقبل على المتكلم لذا اوجبوا دخول (يا) في اسلوب التعجب و (وا) في الندبة « كانهم يترنمون فيها ، فمن ثمّ الزموها المد والحقوا اخر الاسم المد مبالغة في الترنم »[١٧].

فسيبويه كان يتخيل حالة المخاطب الغافل او المتراخي المنشغل باعماله وشؤونه ويتخّيل كذلك حالة المتكلم الذي يرفع صوته ويمده . ويبالغ في مده ثم يصحب ذلك ترنم يتهجد به النادب ، ليثير مشاعر الحزن والالم والتفجع في نفوس المخاطبين .

وينقل سيبويه عن الخليل انه يشير الى حالة اخرى من الاقبال هي اقبال اخر من المتكلم ، فبعد ان يطمئن الى اقبال المخاطب عليه ، وانصاته اليه ، يسوق المتكلم كلامه ، ثم تعن له فكرة ، او قصد ، او خاطرة تستدعي ان يقبل هو بهياة اخرى نحو المخاطب ، في نحو قول الشاعر :

يا هند هندُ بينَ خِلْبٍ وكبدْ

قال « وقد يجوز أن تقول بعد النداء مقبلاً على من تحدثه : هند هذه بين خلْب وكبد فيكون معرفة »[١٨] أي أنه غيّر هياته التي كان عليها عند قوله (يا هند) ثم أقبل على من يحدثه ، فالاقبال متبادل ولكنّه الان بهياة غير الاولى .

* حال المخاطب وحواس المتكلم :

رصد سيبويه حال المخاطب ، وتابع النظر الى تصرفاته ، والاوضاع التي يكون عليها متأملاً تلك الاحوال بالعقل والادراك تارة ، وبالمشاهدة تارة اخرى ، مستفيداً مما يستعين به المتكلم من حواس الخمس التي يتحرى بهاما يجري امامه ، فيبني كلامه بناء يتناسب وتلك الحالات والاوضاع ، معبّراً عن تلك الحواس بافعالها الدالة عليها وهي :

١ ـ فِعل الرؤية : اكثر سيبويه من استعمال فعل الرؤية بالصيغتين اللتين تدلان على كل من الماضي والمستقبل في وصف حال المخاطب ، ففي باب (ما يضمر فيه الفعل المستعمل اظهاره في غير الامر والنهي) نلحظ هذا الفعل يتكرر كثيراً قال « وذلك قولك اذا رأيت رجلًا متوجهاً وجهة الحاج ، قاصداً في هياة الحاج ، فقلت مكة ورب الكعبة حيث زكنت أنّه يريد مكة ، كانّك قلت يريد مكة والله ... أو رأيت رجلًا يسدد سهماً قبل القرطاس فقلت القرطاس والله اي يصيب القرطاس ... ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد . فكبروا لقلت : الهلال وربّ الكعبة ، أي : أبصروا الهلال ، أو رأيت ضرباً فقلت على وجه التفاؤل : عبد الله : أي يقع بعبد الله او بعبد الله يكون . ومثل ذلك ان ترى رجلًا يريد أن يوقع فعلًا ، أو رأيته أن يوقع فعلًا ، أو رأيته في حال رجل قد اوقع فعلًا أو أخبرت عنه بفعل فتقول : (زيداً تريد) اضرب زيداً : أو أتضربُ زيداً

ومنه ان ترى الرجل ، أو تخبر عنه ، انه قد أتى أمراً قد فعله فتقول أكلَّ هذا بخلًا ، أي : أتفعلُ كل هذا بخلًا ؟ وإن شئت رفعته فلم تحمله على الفعل ولكنك تجعله مبتدأ .

وإنّما اضمرت الفعل ها هنا ، وانت تخاطب ، لان المخاطب المخبرلست تجعل له فعلًا آخر يعمل في المخبر عنه ، وانت في الامر للغائب قد جعلت له فعلًا آخر يعمل ، كانك قلت : قل له ليضرب زيداً او قل له آضرب زيداً ، أو مُره أن يضربَ زيداً ، فضعف عندهم مع ما يدخل من اللبس في أمرٍ واحدٍ أن يُضمر فيه فعلان لشيئين »[١٩].

وقال في باب يكون المبتدأ فيه مضمراً ويكون المبني عليه مظهراً وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آيةً لك على معرفة الشخص فقلت : عبدُ الله وربي كانك قلت : ذاك عبدُ الله او هذا عبدُ الله »[٢٠].

ويكتشف المتامل في أقوال سيبويه السابقة أنّ إضمار الفعل في الحالات التي ذكرها لا تجوز في كل الاحوال ، بل تقتصر على إدراك المتكلّم لحال المخاطب ، وما هو عليه ، مستكشفاً ما يجري حوله برؤية ذلك بعينيه أي أنّ الاخبار في ذلك لا يؤدّي ما تؤديه رؤية العينين التي تنقل للمتكلّم الاحداث التي تمر بالمخاطب والحالات التي تجري حوله ، ذلك أنّ رؤية العينين تعيّن الحال ليكون الفعل الصادر من المتكلّم منسجماً مع تلك الحال .

وفي ضوء هذا التصور لحال المخاطب والوصف الدقيق لما هو عليه كما اوضحه سيبويه في وصف رجلٍ متاهبٍ يحمل متاعه ومستلزمات الحجّ ، مُحرمٍ ، قاصدٍ الى مكة ، أو رؤية رجل يحمل قوسه وسهمه في حال تسديد . أو رؤية عِصيّ وسياط بايدي مَنْ يتاهب لضرب شخص ما ، أو رؤية قوم في حال مجتمعين ترقبّ وترصّدُ ، أبصارهم شاخصة الى السماء وعيونهم مشدودة الى منطقة معيّنة يبحثون عن الهلال ، ثم يطلقون أصوات التكبير بعد كلّ هذا الانتظار فيدل هذا المشهد وتلك الاصوات على ظهور الهلال ليستنتج النحويون ـ في ضوء القواعد الشكليّة ـ حذف فعل كان ينبغي أنْ يذكر الحال دلت على حذفه لمعرفة المخاطب بهذه الحال ، إذ لو لم يكن محيطاً بتلك الحال مشاهداً لها لصار الكلام غريباً عليه .

ويقرن النحويون هذا الذي يسمونه حذفاً بتاويل ما ينبغي أن يكون الكلام عليه وهذا التاويل وإن كان مطابقاً لما يقتضيه المعنى في الظاهر غير أنّ العلم بالدلالات والقرائن يجعل التقدير والتاويل تحميلًا للنصّ أكثر ممّا يقتضيه ويدّل عليه ، وهذا ما حمل آبن مضاء القرطبي على رفض التاويل والتقدير[٢١] وهو

رفض له ما يسّوغه في ضوء المناهج اللغويّة الحديثة ذلك لانّ التاويل يلغي فائدة الدلالة التي يوحي بها المشهد بما يغني عن ذكر المحذوف « وهذه مزية من مزايا التركيب في الكلام العربي يقترن فيها الايجاز بالدقة في اداء المعنى وحذف فضول القول ».[٢٢]

وكان الاولى أنْ يتمسّك النحاة بما استنبطوه من دلالة الحال على اغناء الالفاظ المذكورة بالمعنى المقصود من غير حاجة الى تقدير محذوف لانّ الكلام العربي بهذا الايحاء الذي تفيده الحال قد أدّى المعنى المقصود بتضافر دلالات الالفاظ المذكورة والقرائن بما فيها حال المخاطب والحال التي تكون عليها الاحداث . ذلك لانّ المخاطب يدرك تلك الاحوال لانه جزء منها وإلّا ما كان المتكلّم قد أفاد منها في التعبير عن قصده وجعلها ضمن الدلالات الموحية بالمعنى المقصود .

وقد أشار سيبويه الى جانب آخر هو القيمة المعنويّة لاستغناء المخاطب بما يرى المتكلّم فقد نص سيبويه على ذلك في باب (ما ينتصب على اضمار الفعل المتروك اظهاره في الامر والتحذير « وإنّما حذفوا الفعل في هذه الاشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم واستغناء بما يرون من الحال ، وبما جرى من الذكر وصار المفعول الاوّل بدلًا من اللفظ بالفعل »[٢٣] ولا شكّ في أنّ التعليم وما يتطلّبه من إيضاح وتجسيد ، وكون اكثر الدارسين من الاعاجم ، هما السببان اللّذان صرفا النحاة عن الاخذ بدلالة الحال ، واستغناء المخاطب عن ذكر ما كان ينبغي أن يكون عليه الكلام من حيث بناء الجملة وجعلاهم يعوّلون كثيراً على التاويل والتقدير .

وعقد سيبويه باباً سمّاه (باب ما جرى من الامر والنهي على اضمار الفعل المستعمل اظهاره اذا علمت أنّ الرجل مستغنٍ عن لفظك بالفعل) . ومثّل له بقولنا (زيداً وعمراً ورأسه) وهو يعلم ان نصب الاسم لا يتم في العربية الا بقرينة حالية قال « وذلك أنك رايت رجلًا يضرب او يشتم أو يقتل فاكتفيت بما هو فيه من عمله أنْ تلفظ له بعمله فقلت زيداً »[٢٤] إذ لولا الحال التي كان عليها المضروب أو المشتوم او المقتول لما جاز النصب في هذه الاسماء ، ولا تكون كلاماً مفيداً إذا كان المخاطب غير مدرك لتلك الحال اوكان غير عارف بها . ذلك أن المخاطب لوكان بعيداً عن هذه الحال ولم ير هذه الاحداث لما خُوطب بـ (زيداً وعمراً أو رأسه) لان هذه الالفاظ لا يصاحبها ما يخبر عنها أو يفيد معها فائدة تامة لذا يكون المخاطب جاهلًا بدلالتها ، ولذا صار ممكناً أن يُوصل المتكلم المعنى المقصود بـ (زيداً) الى من يخاطبه لانّه يشاركه مشاهدة تلك الاحوال ومن يستقص الالفاظ التي بنيت على رمية الحال يجد شيئاً كثيراً .

٢ ـ فِعْل السَمْع : استعمل سيبويه فِعْل السّمع لاستجلاء الاحوال التي ترفع فيها الاصوات على مقربة من المخاطب فيكون سماعه دليلًا معنوياً لايصال المعنى المراد . ومن ذلك قوله في (اضمار الفعل المتروك اظهاره في المصدر المشبه به) في نحو قولنا (مررت به فإذا له صوت صوت حمار ومررت به فإذا له صراخٌ صراخ التكلى « فإنما انتصب هذا ، لانّك مررت به في حال تصويت »[٢٥] وقوله (في إضمار الفعل المستعمل إظهاره في غير الامر والنهي) (وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس فقلت القرطاس والله ، اي اصاب القرطاس)[٢٦] ومثله تفسيره لحالة الرفع في نحو قولنا (هذا صوتٌ صوتُ حمار) قال « لانّك لم تذكر فاعلًا ، ولانّ الآخر هو الاوّل حين قلت : (هذا) ، هو هذا ثم قلت هو صوتُ حمار لانّك سمعت نُهاقاً فلا شك في رفعه »[٢٧] وقوله في حذف المبتدأ « أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت زيدٌ وربي ».[٢٨]

فالصوت في هذه الامثلة قرينة حاليّة تجعل المتكلم يصوغ أقواله في ضوء سماع هذا الصوت سواء بمعرفة المخاطب أم بإدراكه أنّ المخاطب يفهم دلالة هذا السماع . وفي كلّ هذه الاحوال راعى المتكلم حالًا تعرف عن طريق السمع .

٣ ـ أفعال اللمس والشم والذّوق : ذكر سيبويه كلًا من اللّمس والشمّ والذّوق مرّة واحدة في باب المبتدأ المضمر فقال « ... أو مسست جسداً ، أو شممت ريحاً ، فقلت : زيدٌ أو المسكُ أو ذقت طعاماً فقلت : العسلُ .[٢٩]

والالفاظ في هذا النص واضحة تدلّ على معرفة سيبويه هذه الحواسّ واعتقاده بقدرتها على تقريب الحال المدرك بالشمّ أو اللّمس أو المسّ ليكون دليلًا يسوّغ التصرف في بناء التراكيب من غير حاجة الى تقدير محذوف بل تصبح الحال كاشفة عن المعنى المقصود .

ولا يخفى ما في هذا النص من بيان لاستخدام هذه الحواسّ فهو يوضح أنّ المقصود هو زيد من خلال مَسْح يد المتكلّم أو أنامله بجسد زيد ، أو وجهه من غير اعمال لحاسّة الرؤية أو السماع ، ويستطيع المتكلم الحكم على أنّ الشيء الذي فاح شذاه هو (المسك) مستفيداً من حاسّة الشمّ ، كما يستطيع تمييز العسل من غيره مستعيناً بلسانه لتذوّق طعمه فإنْ أدرك هذه الامور بحواسّه لم تعد به حاجة الى ذكر المبتدأ بل يكتفي بذكر الخبر لانّ المخاطب أحاط علماً بهذه الاشياء ممّا أدركه المتكلّم بحوّاسه فاستغنى المخاطب عن ذكر المبتدأ لمّا أنباته به الحال الملموسة أو المشمومة أو المذاقة . وعبّر المبرّد عن ذلك بقوله « جاز أنْ تُضمر الابتداء إذا تقدم من ذكره ما يفهمه السامع ».[٣٠]

* المرور بالمخاطب والاخبار عن حاله :

وصف سيبويه كثيراً من حالات المخاطب بعبارات تدلّ على معرفة المتكلّم بهذه الاحوال سواء بالمرور به ام بالاطلاع على حاله والاخبار عنها ، ونوّع سيبويه عباراته في هذا الوصف فقال

في منع اضمار الفعل لان الحال لا تفسّر المضمر « أنْ تنتهي الى رجل لم يكن في ذكر ضَربْ ، ولم يخطر بباله فتقول زيداً فلابدّ له من أن تقول له : اضرب زيداً »[٣١] وفي هذا النصّ وصف لما في نفس المخاطب ، وما يخطر بباله ، لذا فإنّ عدم إرادة الشيء انما هو خلو الذهن من ذلك الشيء وعدم التفكير به وهذا ما قصده بقوله (لم يخطر بباله) .

وقد يكون الكلام مصاغاً في ضوء ما يكون عليه الحال في وقت الحديث قال سيبويه : « وأما أنت شانك ... فكلّه رفع ، لا يكون فيه النصب لانك انما تريد ان تخبر بالحال التي فيها المحدث عنه في حال حديثك فقلت انت الان كذلك » .[٣٢]

ويكرر سيبويه عبارة (كانّك مررت به) اكثر من مرّة ليصور حاله في حال مرور المتكلّم به قال « إنْ شئت نصبت فقلت له علمَ علم الفقهاء ، كانّك مررت به في حال تعلّم وتفقه »[٣٣] فهذه الحال تسوّغ النصب ، ويختار الرفع اذا لم تكن هذه الحال قائمة فتقول له علمُ علمُ الفقهاء .. وإنّما كان الرفع في هذا الوجه لانّ هذه خصال تذكرها في الرجل كالحلم ، والعقل ، والفضل ، ولم ترد أن تخبر بانّك مررت برجل في حال تعلّم ولا تفهم » .[٣٤]

وفي هذا القول يميّز سيبويه بين حال تعتري المتكلّم فيمر بها المخاطب عابراً لانّها حال غير ثابتة بل هي حال طرأت وقت المرور عليه ، وثبوت في الصفات ، والخصال ، يُعرف بها المرء ، وتصبح جزءاً من شخصيته وحالة الثبوت والدوام تقتضي الرفع فتكون علامات الرفع دلالة على هذا المعنى المقصود .

وقد يصف سيبويه ما في نفس المخاطب كما يدركها المتكلّم ، وكانّه يسبر غور تلك النفس ، ويعلم ما فيها من احاسيس ومشاعر ، قال في باب الاستثناء بـ (لا يكون وليس وما أشبههما) « وذلك قولك ما أتاني القوم ليس زيداً ، وأتوني لا يكون زيداً ، وما أتاني أحد لا يكون زيداً ، كانّه حين قال : أتوني صار المخاطب عنده قد وقع في خلده أنّ بعض الآتين زيد »[٣٥] ، وعبارة (قد وقع في خلده أنّ بعض الآتين زيد) وصف لباطن المخاطب واستجلاء لما يدور في عقله ، لذا قدر الكلام بما يدلّ على التبعيض .

ومن المعلوم أنّ القسم يأتي لإزالة الشكّ والإنكار من ذهن المخاطب لذا يؤكّد المتكلّم كلامه فتلزمه اللام ونون التوكيد ، في قولنا (والله لافعلنّ خيراً) وقد ذكر الخليل أنّ قولهم (أقسمتُ عليك إلّا فعلت) ، نظير القسم وكانه قال : (لتفعلنّ) ولكنّهم أجازوه بغير اللام والنون لانهم شبهوه بنَشَدْتك الله إذا كان فيه معنى الطلب[٣٦] .

وفي هذا يقول السيرافيّ « وأمّا أقسمتُ عليك إلا فعلت ولما فعلت فإنّ المتكلّم اذا قال أقسمتُ عليك لتفعلنّ فهو مُخبر عن فعل المخاطب أنّه يفعله ، ومُقسم عليه فإذا لم يفعله فهو كاذب لانّه لم يوجد خبره على ماأخبر به »[٣٧] .

* ترقب المخاطب وتوقعه :

يلمس المتتبّع لاقوال النحويّين أنّ حال الترقب ممّا يُبنى عليها كثير من العلل والاحكام فالخليل يفسر تسمية ضمير الفصل بهذا الاسم بقوله « فجاز هذا في هذه الافعال التي الاسماء بعدها بمنزلتها في الابتداء إعلاماً بانّه قد فصل الاسم ، وأنّه فيما ينتظر المحدّث ويتوقعه منه ، مما لابد له من أن يذكره للمحدّث ... فكانه ذكر (هو) ليستدل المحدّث أنّ ما بعد الاسم ما يخرجه ممّا وجب عليه ، وأن ما بعد الاسم ليس منه »[٣٨] .

وذهب المتاخرون الى تفسير مشابه لخّصه الرضيّ بقوله « إنّما سمّي فصلًا لانّه فصل به بين كون ما بعده نعتاً وكونه خبراً ، لانّك إذا قلت (زيد القائم) ، جاز أن يتوهم السامع كون (القائم) صفة فينتظر الخبر فجئت بالفصل ليتعين كونه خبراً لا صفة »[٣٩] .

ورجّح الرضيّ رأي كلٍّ من الخليل وسيبويه على رأي المتاخرين قائلًا : « ومآل المعنيين الى شيء واحد إلّا أن تقديرهما احسن من تقديرهم »[٤٠] ونلحظ في القولين ان ما يكون عليه المخاطب من انتظار هو الاساس في صياغة هذا المصطلح .

وفسر سيبويه دخول (قد) على الفعل من غير فصل بينهما أنّه جواب لقوله (أفَعَل ؟) كما كانت (ما فَعَل) جواباً ل (هل فَعَلَ ؟) اذا أخبرت أنّه لم يقع ، و (لما يفعل) و (قد فَعَلَ) إنّما هما لقوم ينتظرون شيئاً فمن ثمّ اشبهت (قد) (لمّا) في أنّها لا يفصل بينها وبين الفعل .[٤١]

وقال السيرافي في ايضاح ذلك « لانّ منزلة (قد) من الفعل كمنزلة الالف واللام من الاسم لان دخولها على (فعَل) متوقع او مسؤول عنه ، لانه اذا قال : (قد قام زيد) ، فإنّما يقوله لمن يتوقع قيامه أو لمن سال عنه فقال : (هل قام زيد ؟) ، واذا قال : (قام زيد) فإنّما يبتدىء إخباراً بقيامه لمن لا ينتظره ولايتوقعه فاشبهت (قد) العهد في قولك (جاءني الرجل) لمن عهده المخاطب او جرى ذكره عنده » .[٤٢]

فالترقب أو التوقع هما حالتان يكون المخاطب فيهما منتظراً لحصول حدث ، متوقعاً لجريانه ، متلهفاً بكل حواسّه لحدوثه لذا يصوغ المتكلّم كلامه في ضوء هاتين الحالتين ويتجلّى ممّا تقدم أن الحال التي يكون عليها المخاطب في إقباله أو إنصاته أو انشغاله أو ترقّبه كانت مدعاة لتوجيه الكلام وصياغته بناءً واعراباً في ضوء ما تقتضيه تلك الحال بيد ان التركيز على فكرة الاعراب والعامل ازاح هذا الجانب من البحث المعنوي من الدراسات المتاخّرة وصارت من اختصاص الدرس البلاغيّ .

* علْم المخاطب :

إنّ الغرض من الكلام هو إفادة المخاطب واعلامه بما يريد المتكلّم إيصاله إليه ، سواءٌ أكان المخاطب خالي الذهن ، أو عارفاً

بما يقصده المتكلم . فيكون القصد غير الافادة ، بل غرض معنوي اخر . وهذا مما اوضحه الجرجاني في روايته عن الفيلسوف الكنديّ وحكايته مع ابي العباس ، وهي رواية تكشف عن معرفة اللغويين بحالات المخاطب حين يكون خالي الذهن فلا يحتاج المتكلّم الى توكيد ، أو يكون شاكاً فيؤكد المتكلّم كلامه او يكون مُنْكِراً فيزيد المتكلّم من ادوات التوكيد [٤٣] .

ولا استطيع الزعم بانيّ قادر على الاحاطة بالوجوه التي تثبت معرفة النحاة بما يقتضيه علم المخاطب بل ساشير الى حالات على وجه التمثيل ، فقد اولى النحاة بإب التعريف والتنكير اهتماماً خاصّاً في كثير من ابواب النحو ، وبنوا احكامهم فيه على معرفة المخاطب قال الاعلم « اعلم انّ التعريف معلق بمعرفة المخاطب دون المتكلم ، وقد يذكر المتكلم ما يعرفه هو ولا يعرفه المخاطب ، فيكون منكوراً كقولك للمخاطب في داري رجلٌ ، ولي بستانٌ ، فتعرف الرجل بعينه ، والبستان ، وهو لا يعرفهما » [٤٤].

وكان لسيبويه قصب السبق في بيان اهمية علم المخاطب ومعرفته بما يخبر به ، فنقل عن الخليل كثيراً من التعليلات والاحكام التي تبنى على علم المخاطب بما يراد الاخبار به ، لذا يخرج المعنى الى كثير من المعاني ، أو يصاغ بصيغ يحذف فيها الفعل ، أو المبتدأ ، أو الخبر بناءً على علم المخاطب بذلك فقد يضمر اسم (كان) في نحو قول الشاعر :

بني أسـدٍ هـلْ تَعلمـونَ بـلاءنـا
إذا كـان يـومـاً ذا كـوكب أشْنعـا

قال سيبويه « أضمر لعلم المخاطب بما يعني وهو (اليوم) » [٤٥].

وقد يستغني المخاطب بعلمه فلا يذكر له الفعل في نحو قولهم (مواعيد عرقوب أخاه بيثرب) ، قال سيبويه موضحاً ذلك « كانه قال واعدتني مواعيد عرقوب أخاه ولكنّه ترك واعدتني استغناء بما هو فيه من ذكر الخلف ، واكتفاءً بعلم من يعني بما كان بينهما قبل ذلك »[٤٦] ومثله قول سيبويه في قول الناس (كان البر قفيزين ، وكان السمن منوين) « فإنّما استغنوا ههنا عن ذكر الدرهم لما في صدورهم من علمه ، ولأنّ الدرهم هو الذي يُسعّر عليه » [٤٧].

وفي التعريف والتنكير يكون علم المخاطب أساساً في ترتيب الكلام وبناء أجزائه قال سيبويه عن المعرّف بـ « أل » « لانّك اذا قلتَ (مررتُ برجل) فإنّك إنّما زعمت أنّك إنّما مررت بواحدٍ ممن يقع عليه هذا الاسم ، لا تريد رجلًا بعينه يعرفه المخاطب ، واذا أدخلت الالف واللام فإنّما تذكّرهُ رجلًا قد عرفه ، فتقول : الرجل الذي من امره كذا وكذا ، ليتوهم الذي كان عهده ما تذكّر من أمره » [٤٨].

وعلّل سيبويه كون الضمير معرفة بقوله « وإنّما صار الاضمار معرفة لانّك إنّما تضمر اسماً بعد ما تعلم أنّ من يُحدّث قد عرف من تعني وما تعني ، وأنّك تريد شيئاً يعلمه » [٤٩].

ومن العلل التي استند فيها سيبويه الى معرفة المخاطب تفسيره لجواز نعت اسم الاشارة بالمعرف بالالف واللام ، وعدم جواز نعت المعرّف بالالف واللام باسم الاشارة قال « وإنّما منع (هذا) أن يكون صفة لـ (الطويل)و (الرجل) أنّ المخبر اراد أنْ يقرب به شيئاً ويشير اليه لتعرفه بقلبك ولا يريد ان يعرفكه بعينك ، فلذلك صار (هذا) ينعت بـ (الطويل) ، ولا ينعت (الطويل) بـ (هذا) لانّه صار اخصّ من (الطويل) حين اراد ان يعرفه شيئاً بمعرفة العين ، ومعرفة القلب ، واذا قال (الطويل) فانما عرفه شيئاً بقلبه دون عينه ، فصار ما اجتمع فيه شيئان اخص » [٥٠].

وقد يتساوى علم المخاطب مع علم المتكلّم في الامور التي ينوي المتكلّم اخبار السامع بها لذا يبنى كلامه في ضوء هذا الادراك لمعرفة المخاطب وقد اشار سيبويه الى ذلك في نحو (قد علمت أعبد الله ثم ام عمر واما ترى اي برق ههنا) فلا تعمل (علمت) فيما بعدها .

قال (اردت ان تخبر أنّك قد علمت أيهما ثمّ ، واردت ان تسوي علم المخاطب فيهما كما استوى علمك في المسالة حين قلت (أزيد ثم أم عمر) »[٥١] وساوى سيبويه بين معرفة المتكلّم والمخاطب في وجوب الرفع في نحو قولنا (أمّا البصرة فلا بصرة لك) قال « لانّه اسم معروف ومعلوم قد عرف المخاطب منه مثل ما قد عرفت ... وكانه قال : [٥٢]

أمّا البصرة فليست لك .. ولو قال (أمّا العبيدُ فانت نو عبيد يريد عبيداً باعيانهم قد عرفهم المخاطب كمعرفتك ، كانّك قلت : أمّا العبيد الذين تعرف » .

وقد يبنى سيبويه لعلمه أنّ المخاطب يعلم ما يريد أنْ يقول ففي تعليله لمنع وصف المضمر قال « من قبل أنّك إنّما تضمر حين تُرى أنّ المحدّث قد عرف من تعني » [٥٣].

ومثله قوله في النعت الذي يراد به كمال الصفة في نحو قولنا : (أنت الرجلُ كل الرجل) « لانّك إنّما أردت بهذا الكلام هذا الرجل المبالغ في الكمال ، ولم ترد ان تجعل (كل الرجل) شيئاً تعرف به ما قبله وتبينه للمخاطب كقولك (هذا زيد) فإذا خفت ان يكون لم يعرف قلت (الطويلُ) ، ولكنّك بنيت هذا الكلام على شيء قد اثبت معرفته ، ثم اخبرت انه مستكمل للخصال » [٥٤].

فمعرفة المخاطب اعطت النعت دلالة جديدة غير الوصف هي التعبير عن معنى المبالغة في الوصف لانّ المتكلم يعلم أنّك رجلٌ ولن يفيده قولك (أنت الرجل) معنى او فائدة لم يكن يعرفها لذا ياتي الوصف للمبالغة في تلك الصفة وهي الرجولة .

وضع سيبويه السؤال بـ (مَنا) اذا كان المخاطب يذكر شيئاً يعرفه المتكلّم فلا يصحّ ان نقول : (مَنا) لمن قال (رأيت

عبد الله) لانه اذا ذكر عبد الله فانما يذكر رجلًا تعرفه بعينه أو رجلًا أنت عنده ممن يعرفه بعينه فانما تساله على أنك ممّن يعرفه بعينه .[٥٥]

ولكنّ المتكلّم يعلم أحياناً أنّ المخاطب يعرف الشيء إلّا أنّه يذكره لتوكيد علم المخاطب .

فالمصدر (سقياً) يذكر بعده (لك) ليبيّن المعني بالدعاء قال سيبويه (وربما تركوه استغناء اذا عرف الداعي انه قد عُلم مَنْ يعني ، وربما جاء به على العلم توكيداً » .[٥٦]

ومثلها في الذكر والحذف (لك) في قولنا (لايدين بها لك ، ولا يدين اليوم لك قال سيبويه : « وإنْ ظهرت فحسن ، ثم تقول (لك) لتبيّن المنفي عنه وربّما تركتها استغناء بعلم المخاطب ، وقد تذكرها توكيداً وإنْ عُلم مَن تعني » .[٥٧]

ولم يبن النحويون احكامهم وعللهم على علم المخاطب وحده ، بل كان ظن المخاطب وشكه أساساً في بناء احكام وعلل اخرى وذلك أن الشك او الظن يتطلب في اكثر الاحيان توكيداً لإزالة هذا الشك من ذهن الخاطب ، ويقتضي التّحدّث بما يوجبه الظنّ أو يأتي بالادوات التي تناسب هذا الظنّ . ومما حمل على ظن السامع قول سيبويه في منع نصب (زيداً) اذا كان الفاعل غائباً : « وكذلك لا يجوز (زيداً) وانت تريد ان ابلغه انا عنك ان يضرب زيداً ، لانك اذا اضمرت فعل الغائب ظن السامع الشاهد اذا قلت (زيداً) أنك تامره هو بزيد فكرهوا الالتباس هنا » .[٥٨]

وفي تفسير النعت في نحو قولنا (مررتُ برجل لا قائم ولا قاعد) يستجلي سيبويه ما في قلب المخاطب من ظنّ لاحتمال امرين فيصحح هذا الظن او الشك قائلًا : « جُر لانه نعت كانك قلت : (مررت برجلٍ قائمٍ) وكانّك تحدث من في قلبه ان ذاك الرجل قائم او قاعد فقلتَ لا قائم ولا قاعد لتخرج ذلك من قلبه » .[٥٩]

وقد يخامر المخاطب الشك في كون المنعوت في حالة دون اخرى فيؤكد المتكلّم التي كان عليها ، ويخرج الشكّ في نحو قولنا : (مررت برجلٍ راكعٍ لا ساجدٍ) فاثبت له الركوع ونفى عنه السجود قال سيبويه (لإخراج الشك أو لتاكيد العلم فيهما » .[٦٠]

وفي حديثه عن فعل القول ذكر أنّه يحكي به كلاماً تامّاً نحو قوله تعالى ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مَريم إنّ الله اصطفاك ﴾ .[٦١] ولولا ذلك لقال أن الله ، وذكر أنّ ذلك يجري في جميع ما تصرف من هذا الفعل ، واستثنى من ذلك (تقول) في الاستفهام قال : « شبهوها بـ (تظن) ولم يجعلوها كـ (ظنّ) و (يظن) في الاستفهام ، لانّه لا يكاد يستفهم المخاطب عن ظنّ غيره ، ولا يستفهم هو إلا عن ظنه » .[٦٢]

وفي هذا النص وصف لادق حالات المخاطب وهو يتوغل فيما يفكر فيه السامع ويظنه ، لذا يقصر الحكم على ظن المتكلّم لانه لا يسأل عن ظن غيره لان الظنّ الكامن في نفوس الناس لا يسأل عنه إلا مَنْ يُبطنه . ذلك أنّ الظنّ قد يكون خفياً ، كما قال د . نهاد الموسى لا يعلمه الا الفرد او لا يكاد يعلمه غيره لانه مستكن في خواطره وهواجسه ونواياه .[٦٣]

وذهب سيبويه مذهباً اخر في تصوّر قدرة المخاطب على الموازنة بين الاشياء التي يسمعها ، والاخذ بالاسباب للاستدلال على حكم ما من قرينة تذكر أو إشارة يوحي بها المتكلم ، ففي باب التنازع حاول سيبويه الاستنتاج بانّ الفعل الذي يلي الاسم هو العامل مستنداً الى معرفة المخاطب قال « ومما يقوي ترك نحو هذا لعلم المخاطب قوله عز وجل ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ .[٦٤]

فلم يعمل الاخر فيما عمل فيه الاول استغناء عنه .. وجاء في الشعر من الاستغناء أشدّ من هذا ، وذلك قول قيس ابن الخطيم :

نحنُ بمـــا عنـــدنـــا وأنت بمـــا
عنـــــدك راضٍ والـــــرأي مختلف

وقال ضابىء البُرجُمي :

فمنْ يَـكُ أمسى بـالمـدينـة رحلُـهُ
فـــإني وقيـــارا بهـــا لغـــريبُ

وقال ابن احمر واسمه عمرو بن العمرد الباهلي :

رمـــاني بـــامـــرٍ كنتُ منـــه ووالـدي
بـــريئـــاً ومن أجـــل الطّـــوي رمـــاني

فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد لانه قد علم انّ المخاطب سيستدل به على ان الاخرين في هذه الصفة »[٦٥] فقد فسر مجيء الخبر مفرداً (بريئاً) على الرغم من كون اسم كان معطوفاً عليه اسم اخر وكان الاولى ان يقول (بريئَيْنِ) ، بانّ المتكلّم يستند الى قدرة المخاطب العقلية على الاستدلال والاستنباط .

وفي هذا المقام يعجب بعض المحدثين بنباهة سيبويه وقدرته على التنبه الى ما لجهاز التحاور من سيطرة على نواميس الحدث التخاطبي ، حتى إنّ مبدأ التفاهم قد غدا بمنزلة المعيار الضابط لطاقة الاختزال او التصريح في الكلام ، ويصرح عبد السلام المسدي بذلك قائلًا : « والذي يعنينا من كلّ استقراءات سيبويه في هذا المضمار ونحن على مسار تحديد الطاقة الاستيعابية في اللغة هو استنباطه لقانون التناسب العكسي بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بمضمون الرسالة الدلالية وبموجبه تكون الطاقة الاختزالية ممكنة بقدر ما يكون السامع مستطلعاً على مضمونها الخبري » .[٦٦]

ولم يقتصر سيبويه على وضع المفرد في موضع الجمع او العكس للتعبير عن قدرة المخاطب على الاستدلال بالقرائن والايحاءات بل فسر كثيراً من حالات الحذف والاضمار معتمداً على

فطنة المخاطب وذكائه وخبرته ، ففي موضوع ترك الاجوبة في الشرط وهي كثيرة في القرآن الكريم .

سأل سيبويه الخليل عن قوله جلّ ذكره ﴿ حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها ﴾[٦٧] .

اين جوابها وعن قوله جلّ وعلا ﴿ ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ﴾[٦٨] وقوله تعالى ﴿ ولو ترى اذ وقفوا على النار ﴾[٦٩] فقال « إنّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبَر لأيّ شيء وضع هذا الكلام » .[٧٠]

ولا شكّ في أنّ قضية ترك الاجوبة قد اخذت حيّزاً كبيراً من تفكير علماء اللغة وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى لكنّ مفتاح حلّ هذه المعضلة يتضح فيما اجاب به الخليل عن سؤال سيبويه لانّه بنى القضية على علم المخاطب ومعرفته بما يحويه الكلام من اسرار يفصح عنها السياق والقرائن لذا يكون ذكر هذه الاجوبة استخفافاً بعقل المخاطب ونباهته ، فضلاً عن ان هذا الترك يجعل المخاطب في حالات استقصاء لمعلوماته وشحذ لذاكرته واختبار لقدرته على التحليل والاستنباط وهو ما يجعله مستمتعاً بايحاءات النصّ وجمال التعبير الخفي .

والمخاطب قد يكون ذكيّاً عارفاً مدركاً لاحواله يربط الاسباب بالمسببات ويستنتج الاحكام ، وقد يكون جاهلًا او غافلًا او ناسياً يحتاج الى تذكير وتعريف وهذا ما بنى عليه سيبويه احكامه في موضوعات منها جواز اضمار خبر (إنّ) إذا دلّ عليها الظرف او الجار والمجرور قال : « وتقول إنّ ألفاً في دراهمك بيض ، وإنّ في دراهمك ألفاً بيضٌ ، فهذا يجري مجرى النكرة في (كان) و (ليس) لان المخاطب يحتاج الى ان تعلمه ههنا كما يحتاج الى ان تعلمه في قولك : ما كان احد فيها خيراً منك » .[٧١]

واذا كان المخاطب جاهلًا أو غافلًا أو غير متنبّه ، فالحال يقتضي أن ننبّهه أو نذكّره ، فقد يكون المخاطب عارفاً بالخبر ، مدركاً له لكن المتكلّم يريد أنْ ينبهه على أنّه في هذه الحال نحو قولنا (هذا عبد الله منطلقاً) و (هؤلاء قومك منطلقين) و (ذاك عبد الله ذاهباً) و (هذا عبد الله معروفاً) قال سيبويه « فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهو عبد الله ، ولم يكن ليكون (هذا) كلاماً حتى يبنى عليه أو يبنى على ما قبله ... والمعنى أنّك تريد أن تنبهه له منطلقاً ، لا تريد أن تعرّفه عبد الله ، لانّك ظننت أنّه يجهله ، فكانك قلت : (انظر اليه منطلقاً) ... و (ذاك) بمنزلة (هذا) إلا أنّك اذا قلت (ذاك) فانت تنبهه لشيء متراخٍ » .[٧٢]

ومثله اذا ابتدأت بالضمير نحو قولنا : (هو زيدٌ معروفاً) قال سيبويه في تعليل نصبه على الحال مستنداً الى جهل المخاطب « وذلك أنّك ذكرت للمخاطب انساناً كان يجهله ، أو ظننت أنّه يجهله فكانّك أثبته أو الزمه معروفاً » .[٧٣]

وأمّا تذكير المخاطب بما كان نسيه او غفل عنه فقد ذكره سيبويه في نصب الاسم الذي يصلح أنْ يكون خبراً للمبتدأ في نحو قولنا : هذا الرجلُ منطلقٌ ، وهذا الرجلُ منطلقاً ، قال في تفسيره للنصب (جعلت الرجل مبنيّاً على (هذا) وجعلت الخبر حالًا قد صار فيها فصار كقولك : (هذا عبدُ الله منطلقاً) ، وإنّما يريد في هذا الموضع ان يذكر المخاطب برجل قد عرفه قبل ذلك ، وهو في الرفع لا يريد أنْ يذكّره باحد وإنّما أشار فقال : هذا منطلق » .[٧٤]

وممّا تقدّم يمكن القول إنّ اكثر الاحكام كانت تراعي إدراك المخاطب وعلمه كما تراعي أنْ لا يُحدث الكلام لبساً فتختلط المعاني وتتداخل فلا يعلم المقصود منها ؛ لذا صار عدم اللبس مصطلحاً نحوياً يراد به مراعاة الوضوح في الكلام ، والبيان في التركيب ، لكي يدرك المخاطب المعنى المراد من غير لَبْس او خلط في الدلالة ففي باب الافعال الناقصة ذكر سيبويه « أنّه لا يستقيم أنْ تخبر المخاطب عن المنكور ، وليس هذا بالذي يُنزل به المخاطب منزلتك في المعرفة فكرهوا أن يقربوا باب لَبْس ، وقد تقول : (كان زيدٌ الطويلُ منطلقاً) إذا خفت التباس الزيدين .. فالمعروف المبدوء به ، ولا يبدأ بما يكون فيه اللبس وهو النكرة ، الا ترى انك لو قلت (كان الرجل منطلقاً) ، او (كان انسان حليماً) ، كنت تلبس لانه لا يستنكر ان يكون في الدنيا انسان هكذا ، فكرهوا أن يبدؤوا بما فيه اللبس ويجعلوا المعرفة خبراً لما يكون فيه هذا اللبس » .[٧٥]

والملاحظ في هذا النّص أنّ سيبويه يعلّل منع جواز كون اسم الفعل الناقص (كان) نكرة ، بخشية اللبس على المخاطب ، لانّ النكرة لا يمكن الاخبار عنها بما يفيد المخاطب ، لانّ الخبر يظلّ مبهماً لا يخصّ واحداً بعينه أو شخصاً معروفاً لدى المخاطب .

ولا أشك في أنّ سيبويه كان يتخيل بإدراك عميق حال كلّ مخاطب وهو يسمع ما يتحدث به المتكلّم سواء أكان عالماً بما يقال ، عارفاً به ، أم خالي الذهن ، أم جاهلًا ، أم غافلًا ، كما اوضحت فيما تقدم ، ويبني كثيراً من الاحكام والعلل في ضوء هذا التّصور ويجعل لكلّ حال من احوال المخاطب حكماً يقصده المتكلّم ، لانّ المتكلّم يضع في حسبانه علم المخاطب وجهله وما يقتضيه ذلك من تنبيه او تذكير او تأكيد ، ولكنّه يتجاوز أحياناً حالة الإخبار اذا اطمأن الى معرفة المخاطب وعلمه بالخبر ليعرض معاني اخرى تعرف بالقرائن والسياق وهو ما سمّاه البلاغيون (لازم الفائدة) قال القزويني « لا شكّ أنّ قصد بخبره إفادة المخاطب أمّا الحكم أو كونه عالماً به ، ويسمى الاول فائدة الخبر والثاني لازمها » .[٧٦]

وقد ذكر النحويون جانباً من لازم الفائدة وأشاروا الى جوانب أخرى من غير تعيين أو ايضاح ، فمما ذكروه إرادة معاني المدح والذم والتعظيم والتحقير والتعجّب والاستغاثة والندبة ، أمّا ما أشاروا إليه فهو التأكيد بادوات التوكيد المختلفة والقسم فقد

عقد سيبويه باباً وسمه بـ « ما ينتصب على التعظيم والمدح) وهو ما اصطلح عليه النحاة (النعت المقطوع) .

قال سيبويه « إنْ شئت جعلته صفة فجرى على الاول ، وإنْ شئت قطعته فابتدأته وذلك قولك الحمدُ لله الحميد هو ، والحمدُ لله أهلَ الحمد ، والملكُ لله أهلَ الملك ، ولو ابتدأته فرفعته كان حسناً » .(٧٧)

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لكن الرّاسخون في العِلمْ منهمْ والمُؤمنون يؤمنون بما أنزل إليكَ ومَا أنزل من قَبلك والمقيمين الصَّلاة والمُؤتونَ الزّكاة ﴾ .(٧٨)

ونظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق :

لا يبعدن قومي الذين هم سَم العُداة وآفةُ الجُزر
النازلين بكلِّ معتركٍ والطيّبون معاقد الازر

وقول ابن خياط العكلي :

وكـــل قـــومٍ أطـــاعوا أمـــر مـــرشـــدهم إلا نُميـــراً أطـــاعت أمـــر غـــاويهـــا
الظـــاعنين ولمّـــا يُظعنـــوا احـــداً والقـــائلـــون لِمنْ دارٌ تخلّيهـــا(٧٩)

وقد فسر الخليل خروج هذه الاسماء عما ينبغي ان تكون عليه بانّه سبيل لاداء معاني الثناء والتعظيم . قال سيبويه « زعم الخليل أنّ نصب هذا على أنّك لم تُرد أن تحدّث الناس ولا مَن تخاطب بأمرٍ جهلوه ، ولكنّهم قد علموا من ذلك ما قد علمت فجعله ثناءً وتعظيماً »(٨٠) وقال في بيت أمية بن أبي عائذ :

ويأوي الى نسوة عُطل وشُعثاً مراضيع مثل السعالى

« كأنّه حيث قال (الى نسوة عُطل) صرن عنده ممن عُلم أنهن شُعث ولكنّه ذكر ذلك تشنيعاً لهن وتشويهاً » .(٨١)

فالمخاطب يعلم أنّهن شعث ، ولكن الشاعر اراد بهذا القطع أنْ يذم أولئك النسوة .

ويؤكد سيبويه اهمية معرفة المخاطَب وعلمه في تصور المتكلم ليبلغ قصده بالمدح او الذم او التعظيم لذا جعل ذلك شرطاً لاداء هذه المعاني قال : « واعلم أنّه ليس كلّ موضع يجوز فيه التعظيم ولا كلّ صفة يحسن أنْ يُعظم بها ، لو قلت : مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البزاز ، لم يكن هذا مما يعظّم به الرجل عند الناس ولا يفخم به ، وأمّا الموضع الذي لا يجوز فيه التعظيم فإنّ تذكر رجلاً ليس بذبيه عند الناس ولا معروف بالتعظيم ثم تعظمه كما تعظّم النبيه ، وذلك قولك : (مررت بعبد الله الصالح) فإن قلت : مررت بقومك الكرام الصالحين ثم قلت المطمعين في المحل جاز لانه اذا وصفهم صاروا بمنزلة من قد عُرف منهم ذلك ، وجاز له أن يجعلهم كانهم قد عُلموا فاستحسن من هذا ما استحسن العرب ، وأجزه كما أجازته » .(٨٢)

وكذلك الحال في الشتم والذم فقد اعتمد سيبويه على معرفة المخاطب في تقرير الذم : « تقول (أتاني زيدٌ الفاسق الخبيث) : لم يُرد أن يكرره ولا يعرفك شيئاً تنكرهُ ، ولكنّه شتمه بذلك » .(٨٣)

وقال في بيت عُروة الصعاليك العبسي :

سَقوني الخمرَ ثم تكنفوني عُداة الله من كذب وزُور

« إنّما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين » .(٨٤)

ويورد سيبويه استفهاماً وهو يعلم أنّ المتكلم لا ينتظر جواباً عنه لانه لم يورده على سبيل الاسترشاد أو طلب الفهم بل يذكره للتوبيخ كما في قولهم : (أتميمياً مرةً وقيسياً اخرى ؟) قال سيبويه : « وإنّما هذا أنّك رأيت رجلاً في حال تلوّن وتنقل فقلت أتميمياً مرة وقيسياً اخرى ؟ كأنك قلت : أتحوّل تميمياً مرة وقيسياً اخرى ؟ فانت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له ، وهو عندك في تلك الحال في تلوّن وتنقّل ، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه أيّاه ويخبره عنه ، ولكنّه وبخه بذلك » .(٨٥)

ويتّضح من هذه الاقوال أنّ سيبويه قد وضع العلاقة بين المتكلّم والمخاطب أساساً لمعرفة كثير من المعاني لانّ اعتقاد المتكلّم بغنى المخاطب عن إخباره بما غرضه الفائدة ، يجعله يسوق ذلك الخبروهو يقصد معاني اخرى يعينها السياق والقرائن وما ذكرته مَن أمثلة إنّما هي للتعريف بهذا الاتجاه المهم في البحث التركيبي وليست هي كل الامثلة .

*** مراعاة قول المخاطب :**

يكتشف المتدبّر في الدراسات النحويّة أنّ كثيراً من الاحكام النحوية بناها النحويون أو وجّهوها في ضوء تخيّل وجود مخاطب محاور يُقبل على المتكلم ويحاوره لذا يكون الحكم مبنياً على قول مفترض للمخاطب يحمل المتكلم على الرد عليه ، وصياغة جمله في ضوء ما يعنيه المخاطب ويقصده .

ونقل سيبويه حالات لا حصر لها ممّا تخيّله ودار في خلده عن وجود مخاطب يقول كلاماً يصوغ المتكلّم جملَه بما يناسب كلام المخاطب ، ففي حديثه عن نصب (زيد) في مثل قولنا : (مَنْ أنتَ زيداً) قال « لم يُحمل (زيداً) على (مَنْ) ولا (أنت) ، ولا يكون (مَنْ أنت زيداً) إلّا جواباً ، كأنه لمّا قال : أنا زيدٌ ، قال : فمن أنت ذاكراً زيداً » ويوضح قوله هذا بما يؤكّد ما ذهبنا اليه قال فهو يقول : « حتى إنّهم ليسألون الرجل عن غيره فيقولون للمسؤول : (مَنْ انت زيداً) كانه يكلّم الذي قال : (أنا زيدٌ)

أي : عندي بمنزلة الذي قال (أنا زيدٌ) فقيل له : مَنْ أنت زيداً »[٨٦] .

ويُجري سيبويه حواراً خيالياً لمخاطب يقول قولًا ويرد عليه رجل اخر هو المتكلّم موضّحاً ذلك بالبيان والبرهان قال : « ويقول الرجل (يا ويلاه) ، فيقول الآخر : (ويلًا كيلًا) ! كأنّه يقول : لك ما دعوت به ويلًا كيلًا ، يدلّك على ذلك قولهم اذا قال : (يا ويلاه) : (نعم ويلًا كيلًا) ، أي : كذلك أمرُك ، أو : (لك الويلُ ويلًا كيلًا) .[٨٧]

وفي هذا يختلف النصب عن حالة الدعاء في نحو قولنا : (ويلك) أو في حالة الرفع نحو قولنا : (ويلٌ لك) كما قال تعالى : ﴿ ويلٌ للمطفّفين ﴾[٨٨] و ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين ﴾[٨٩] فهو في نصّ سيبويه لا يريد النصب للدلالة على معنى الدعاء بل هو ردٌ على من ذكر هذا المصدر في حالة تفجع أو استثارة للعطف .

وكثيراً ما يأتي سيبويه بلفظ : (كانه قال) او : (كأنّه إذا قال) وفي ذلك دلالة على أنّ الحال يبني عليها الحكم هي حال تصورية يشبه بها حالًا بحال اخرى يصفها قول قائل فيستوجب ذلك القول كلاماً يساوقه ويجري على معناه أو ينقضه ، ففي ذكره للمصدرين (لبيك وسَعْديك) قال موضّحاً دلالتهما بما نقله عن أبي الخطّاب الاخفش : « فكأنّه اذا قال الرجل للرجل : (يا فلان) ، فقال : (لبّيك وسَعديك) فقد قال له : قُرباً منك ومتابعة لك ، فهذا تمثيل وان كان لا يستعمل في الكلام »[٩٠]

ويتصوّر أحياناً أنّ المخاطب قال قولًا أو ظنّ المتكلّم أنّه يقول ذلك فيبني عليه وتفسيره للتراكيب على ذلك التصوّر ففي تفسيره لبدل المعرفة من النكرة في نحو قوله تعالى ﴿وإنّكَ لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراطِ الله ﴾[٩١] أو قولنا : (مررت برجلٍ عبد الله) قال : كأنّه قيل له : (بمنْ مررت ؟) أو ظنّ أنّه يقال له ذاك فابدل مكانه ما هو أعرف منه » .[٩٢]

وفي تفسيره لعدم جواز الاتباع على (رجلٍ) في قولنا (مررتُ برجلٍ عبدُ الله) قال « كأنه قيل لك من هو ؟ أو ظننت ذلك » .[٩٣]

ويلاحظ هنا تمثيله لما يدور في خلد المخاطب في مثل هذه الاسئلة ذلك أنّ جملة (بمنْ مررت ؟) سؤال ينبغي أن يكون له جواب مجرور بالباء فيصحّ اتباعه للاسم المجرور بالحرف نفسه (مررت برجل) لكن تصور ما يدور في ذهن المخاطب على غير ذلك وهو سؤاله : (مَنْ هو) جعل الكلام يجري على غير ما كان ينبغي أنْ يكون عليه فاقتضى هذا السؤال المتصوّر رفع (عبد الله) .

وتختلف صياغة سيبويه لفعل القول المتصوّر للمخاطب إذ يرد تارة مبنياً للمعلوم قوله في بيان دلالة (لاجَرَمَ) على الجواب لما قبلها من الكلام : « يقول الرجل كان كذا وكذا وفعلوا كذا وكذا ، فنقول : (لا جَرَم أنّهم سيندمون) أو (أنّه سيكون كذا وكذا) » .[٩٤]

وكثيراً ما يرد بصيغة المبني للمجهول ففي تفسيره لظاهرة اجتماع الواو او الالف او الياء مع الفاعل في فِعْلٍ واحد نحو قولنا : (انطلقوا بنو فلان) وقوله تعالى ﴿ وأسرُّوا النَّجوى الذين ظلموا ﴾[٩٥] حمل الاسم على الضمير بدلًا منه قال « وكأنّه قال انطلقوا فقيل له مَن ؟ فقال : بنو فلان » .[٩٦]

ونقل عن يونس أنّ الآية جرت على هذا التفسير .[٩٧]

ويمثّل هذا التفسير فسّر ما لم يجر على البدل في نحو قول الشاعر :

ولقد خبطن بيوتَ يشكُرَ خبطة
أخوالنا وهمُ بنو الاعمام

قال « كانه حين قال : (خبطن بيوت يشكر) قيل له : (وما هم) فقال : (اخوالنا وهم بنو الاعمام) »[٩٨]

ونقل عن ابي الخطاب أنّه سمع من العرب مَنْ يقال له : (إليك) فيقول : (إليّ) ، قال سيبويه : « كأنّه قيل له : (تَنحَّ) فقال : (أتنحى) » .[٩٩]

ويأتي سيبويه أحياناً بصيغة المضارع المبني للمجهول قال : « سمعنا من العرب من يُقال له (ذهبنا معهم) فيقول : (مع منين ؟) (وقد رأيته) فيقول : (مناً) أو (رأيت مناً) .[١٠٠]

وهنا يضع سيبويه المخاطب في مكانة العارف بحال من تحدّث عنهم لذا سأل عنه ، وهذا ما ذكره في قوله : « على أنّ الذين ذكر ليسوا عنده ممن يعرفه بعينه ، وأن الامر ليس على ما وضعه عليه المحدّث فهو ينبغي له أن يسأل في ذا الموضع كما سأل حين قال : (رأيت رجلًا) .[١٠١]

ويتخيّل سيبويه أحياناً مخاطباً لم يتحدث ولكنّه يجري على لسانه قولًا يفسر به طريقة بناء كلام المتحدث وإنْ لم يكن المخاطب قد تحدث به ، فقد ذكر أنه ليس كلّ شيء من الكلام يكون تعظيماً لله عز وجل يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين فلا يصح ان نقول (الحمد لزيد) تعظيماً له ، ولكنه جوز كلاماً فيه مدح وتعظيم على وجه يكون المخاطب عارفاً بالخبر ولكنّه يسأل ليزداد تعريفاً قال « وقد يجوز ان تقول : (مررت بقومك الكرام) اذا جعلت المخاطب كانه قد عرفهم كما قال (مررت برجل زيد) فتنزله منزلة من قال لك (من هو ؟) وان لم يتكلم به فكذلك هذا تنزله هذه المنزلة وان كان لم يعرفهم »[١٠٢] .

ويعتقد السيرافي أنّ مسألة التعظيم ينبغي أن يكون احد شروطها معرفة المخاطب بتلك العظمة واشتهاره عنده بها . قال موضحاً كلام سيبويه « يحتاج التعظيم الى اجتماع معنيين في المعظّم ..... والاخر ان يكون المعظم قد عرفه المخاطب وشُهِر عنده بما عظّم به ، أو يتقدم من كلام المتكلّم بما يتقرر به عند المخاطب حال مدح وثناء وتشريف في المذكور يصح ان يورد

بعدها التعظيم » .[١٠٢]

لذا يمكن القول إن سيبويه يعني كثيراً بقول المخاطب سواء أمقولًا كان حقيقة أو مُتَخيَّلًا لاعتقاده بأنّ المخاطب أساس في استمرار التفاهم والاتصال بين المخاطب والمتكلّم لذا لا يستطيع المتكلّم أنْ يجعل كلامه في منأى عن ادراك المخاطب وفهمه فهو لا يستطيع الاستمرار في الكلام من غير معرفة بالظروف الاجتماعيّة والنفسيّة للمخاطب .

وثمة أمر آخر يرتبط بقول المخاطب يمكن تشخيصه في كتاب سيبويه هو جَعْل المخاطب سائلًا ومستفسراً وإنْ لم يحصل هذا ، فقد كان يتخيّل انماطاً من الاسئلة يصوغها على لسان المخاطب قال « ومما يبين لك أنّ الصفة لا يقوى فيها إلا هذا أنّ سائلًا لو سألك فقال : (هل سيْرَ عليه) لقلت : (نعم سيْرَ عليه شديداً) ، و(سيْرَ عليه حسناً) فالنصب في هذا على أنّه حال وهو وجه الكلام لأنّه وصفُ (السير) ولا يكون فيه الرفع » .[١٠٤]

وقال في الموضع نفسه « فمن ذلك قولك على قول السائل : (أي سيرٍ سيْر عليه ؟) فنقول : (سيْر عليه سيرٌ شديدٌ » .[١٠٥]

وممّا حُمل على سؤال السائل إجازة النصب في قولنا : (زيداً مررتُ به) لان هذا الكلام يكون جواباً لسؤالٍ هو : (أعبد الله مررت به أم زيداً ؟) وكذلك لو قلت : (لا بل زيداً) ويفسر سيبويه ذلك بالحمل على معنى (لقيته) قال موضحاً ذلك : « فإنّما تحمل الاسم على ما يحمل السائلُ ، كأنّهم قالوا : (أيُّهُم أتيت ؟) فقلت : (زيداً) .[١٠٦]

ويقرّر سيبويه الجرّ أو الرفع في ضوء سؤال السائل في نحو قولنا (مررتُ برجلين مسلمٍ وكافرٍ) قال « وإنْ شئت كان المسلم والكافر بدلا كأنّه أجاب من قال : (بأيّ ضربٍ مررت ؟) وإن شاء رفع كأنّه أجاب مَنْ قال : (فما هما ؟) فالكلام على هذا وإنْ لم يلفظ به المخاطب لانه إنّما يجري كلامه على قدر مسألتك عنده لو سألته » .[١٠٧]

فسؤال المخاطب هو المعوّل عليه في تقرير الحكم رفعاً أو جرّاً .

ويُلاحظ في هذا المقام أنّ المخاطب لم يُسأل حقيقة بل تخيّل المتكلّم مثل هذا السؤال وقد يكون سائلًا حقيقة ، وقد يكون مما تخيّله سيبويه لتوضيح الحال .

وهذا الاهتمام بسؤال المخاطب ، وتخيّل ما يرد في ذهنه من اسئلة هو الاساس لما بنى عليه البيانيون آراءهم في كثير من الاحكام المتعلقة بالجملة ، ذكر ابن هشام ان البيانيين يخصّون الاستئناف بما كان جواباً لسؤال مقدّر نحو قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضيف ابراهيم المكرمين ، إذْ دَخَلوا فقالوا سَلَاماً قال سلامٌ قومٌ مُنْكرون ﴾ .[١٠٨]

فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدّر تقديره (فماذا قال لهم ؟) .[١٠٩]

* الخاتمة :

وفي خاتمة المطاف في نظرات سيبويه لحال المخاطب وما يكون عليه الحال في الكلام يتجلّى لنا أنّ هذا النحوي كان عميق التأمّل في حال طرف الكلام الآخر وهو المخاطب ، يتراءى أمامه في أوضاعه المختلفة ، يدقّق في أحواله ويتخيلها بسعة خيال ليبيّن ما كان منها من غفلة أو نسيان أو انشغال أو نوم أو إعراض أو غير ذلك ، ويفسر كثيراً من الاستعمالات اللغوية وطرائق البناء في الجملة العربية ، وحالات الاعراب المختلفة في ضوء ما يكون عليه المخاطب ، ذلك أنّه يتراءى أمامه في حالات علمه ومعرفته واكتمال خبراته ، ومعرفته بما يقال ، أو جهله وخلو ذهنه ينتظر الخبر ليزداد معرفة وعلماً ، وهو بين هذا وذاك مؤثّر فعّال في صياغة البناء التركيبي للجملة وما يعتريها من عوارض من حذف وإضمار وتقديم وتاخير .

وكان سيبويه يتخيّل المخاطب في احواله كُلّها فإنْ كان عارفاً بما يُخبر به فسرّ ذلك بما يستحقه من معنى يخرج اليه ذلك التركيب كالتعظيم والتحقير والذمّ والمدح والتعجّب والاستفاثة وغير ذلك . ويغور سيبويه وغيره من النّحويين كثيراً في باطن المخاطب لاستجلاء اسراره وهواجسه وشكوكه وظنونه واعتقاده لتاتي الاحكام والعلل متساوقة مع هذه الحالات التي يكون عليها المخاطب .

وقد كشف لنا البحث في كتاب سيبويه أنّ المتكلم لا يعتمد على حاسّة واحدة في إملاء تلك الحالات بل يسخر سمعه وبصره وشمّه ولمسه وتذوّقه لادراكها كي يصوغ كلامه في ضوء ما توصله اليه تلك الحواسّ ، كما كشف لنا أنّ المخاطبين عند النحويّين أصناف فمنهم الذكي ومنهم الجاهل ومنهم المتغافل ومنهم الحاذق ومنهم العارف العالم ، لذا يلجأ النحويّ الى بيان يكون عليه من هذه الاصناف ومن تلك الحالات ليعطي تفسيراً لاحكامه وتعليلًا لما يجده من اختلاف في الاعراب او في بناء الكلام .

ولا يخفى أنّ سرد حالات المخاطب كلّها أمر عسير يستلزم إتّساعاً في البحث لا يستوعبه هذا البحث الموجز غير أنّ الاشارات التي اخترتها تجعلني مطمئناً الى القول إنّ النحويين القدامى ربطوا احكامهم وتعليلاتهم وتفسيراتهم بحالات المخاطب بوعي وادراك لتلك الحالات فاكتسبت حال المخاطب اهتماماً جعل النحويين يشيرون الى علاقة تلك الاحوال بالاوضاع الاجتماعية والنفسية لكلّ من المتكلّم والمخاطب من غير أن يخوضوا في تفصيلاتها التي آل إليها الدرس اللغوي الحديث ، ومَنْ وضع يده على الجرح فلا يعسر عليه أن يكشف عن أوصاف ذلك الجرح وحالاته وهكذا كان النحويون القدامى رواداً في الكشف عن تلك الاحوال التي كان المخاطب عليها ، وكانوا مبدعين في بيانهم لطرفي الحوار ، وأثر كل منهما في الآخر في صياغة الكلام .

الهوامش

(١) ينظر حدّ ابن جني للغة . الخصائص ١ / ٣٤
(٢) اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ١٢٣
(٣) اللغة والمعنى والسياق ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٤) التفكير اللساني في الحضارة العربية ١٤٧ .
(٥) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي ٨٨
(٦) في النحو العربي : نقد وتوجيه ٢٢٥
(٧) علم النفس اللغوي ٣٣
(٨) التلخيص ٣٣ - ٣٤
(٩) دلائل الاعجاز ٤٠٨
(١٠)الخصائص ١ / ٢٤٧
(١١) الكتاب ١ / ٢٤٤ ويظر الاصول ١ / ١٧١ والنكت ١ / ٣٣٣
(١٢) الكتاب ٢ / ٢٣٢
(١٣) الكتاب ٢ / ٢٠٨
(١٤) الكتاب ٣ / ٢٢٩ - ٢٣٠
(١٥) الاصول ١ / ٤٠١ .
(١٦) الكتاب ٢ / ٢٣١
(١٧) الكتاب ٢ / ٢٣١
(١٨) الكتاب ٢ / ٢٣٩ .
(١٩) الكتاب ١ / ٢٥٧ - ٢٥٨ وينظر النكت ١ / ٣٣٨
(٢٠) الكتاب ١ / ١٣٠
(٢١) ينظر الرد على النحاة ٨٧ - ١٢٩
(٢٢) نحو المعاني ٦٦
(٢٣) الكتاب ١ / ٢٧٥
(٢٤) الكتاب ١ / ٢٥٣
(٢٥) الكتاب ١ / ٣٥٦
(٢٦) الكتاب ١ / ٢٥٧ . (٢٧) الكتاب ١ / ٣٦٥
(٢٨) المصدر نفسه ٢ / ١٣٠
(٢٩) المصدر نفسه ٢ / ١٣٠
(٣٠) المقتضب ٤ / ١٢٩) (٣١)الكتاب ١ / ٢٩٦
(٣٢) الكتاب ١ / ٣٠٤ وينظر النكت ١ / ٣٦٢ ، ومغنى اللبيب ٢ / ٦٧٣
(٣٣) الكتاب ١ / ٣٦١ .
(٣٤) الكتاب ١ / ٣٦١ وينظر النكت ١ / ٣٩٢
(٣٥) الكتاب ٢ / ٣٤٧
(٣٦) الكتاب ٣ / ١٠٦
(٣٧) حاشية الكتاب ٣ / ١٠٦ .
(٣٨) الكتاب ٢ / ٣٨٩
(٣٩) شرح الكافية ٢ / ٢٤ (٤٠) شرح الكافية ٢ / ٢٤
(٤١) الكتاب ٣ / ١١٤ - ١١٥ .
(٤٢) حاشية الكتاب ٣ / ١١٥ وينظر النكت ٢ / ٧٥٩
(٤٣) دلائل الاعجاز ٢٤٢ .
(٤٤) النكت ١ / ٤٤٢
(٤٥) الكتاب ١ / ٤٧ وينظر ١ / ٢٢٤
(٤٦) الكتاب ١ / ٢٧٢ ، ١ / ٢٨٣ ، ١ / ٢٨٧ .
(٤٧) الكتاب ١ / ٣٩٣ .
(٤٨) الكتاب ٢ / ٥ .
(٤٩) الكتاب ٢ / ٦ . (٥٠) الكتاب ٢ / ٧ .
(٥١) الكتاب ١ / ٢٣٦ وينظر المقتضب ٣ / ١٨٩ .
(٥٢) الكتاب ١ / ٣٨٩ .
(٥٣) الكتاب ٢ / ١١
(٥٤) الكتاب ٢ / ١٢
(٥٥) الكتاب ٢ / ٤١٢
(٥٦) الكتاب ١ / ٣١٢ - ٣١٣ وينظر المقتضب ٣ / ٢١٧
(٥٧) الكتاب ٢ / ٢٨٠
(٥٨) الكتاب ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥ وينظر النكت ١ / ٣٣٦
(٥٩) الكتاب ١ / ٤٢٩
(٦٠) الكتاب ١ / ٤٣٠ (٦١) ال عمران ٤٢
(٦٢) الكتاب ١ / ١٢٢ ، وينظر المقتضب ٢ / ٣٤٩
(٦٣) نظرية النحو العربي ٩٥
(٦٤) الاحزاب ٣٥ .
(٦٥) الكتاب ١ / ٧٤ - ٧٦
(٦٦) التفكير اللساني ٣٣٢
(٦٧) الزمر ٧٣
(٦٨) البقرة ١٦٥
(٦٩) الانعام ٢٧
(٧٠) الكتاب ٣ / ١٠٣
(٧١) الكتاب ٢ / ١٤٣ وينظر ١ / ٥٤ ، وينظر المقتضب ٤ / ٩٠
(٧٢) الكتاب ٢ / ٧٨
(٧٣) الكتاب ٢ / ٧٨ - ٧٩ .
(٧٤) الكتاب ٢ / ٨٦ - ٨٧ وينظر ٢ / ١٩٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ .
(٧٥) الكتاب ١ / ٤٨ .
(٧٦) التلخيص ٤٠ - ٤١
(٧٧) الكتاب ٢ / ٦٢ . (٧٨) النساء ١٦٢
(٧٩) الكتاب ٢ / ٦٤
(٨٠) الكتاب ٢ / ٦٥ - ٦٦ .
(٨١) الكتاب ٢ / ٦٦
(٨٢) الكتاب ٢ / ٦٩
(٨٣) الكتاب ٢ / ٧٠
(٨٤) الكتاب ٢ / ٧٠ وينظر ٢ / ٧٢ - ٧٣ ما قاله في بيتي الفرزدق

(٨٥) الكتاب ١ / ٣٤٣
(٨٦) ١ / ٢٩٢
(٨٧) الكتاب ١ / ٢٩٢
(٨٨) المطففين ١
(٨٩) المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩
(٩٠)الكتاب ١ / ٣٥٣
(٩١) الشورى ٥٢ ، ٥٣
(٩٢) الكتاب ٢ / ١٤
(٩٣) الكتاب ٢ / ١٥
(٩٤) الكتاب ٣ / ١٣٨
(٩٥) الانبياء ٣
(٩٦) الكتاب ٢ / ٤٠
(٩٧) الكتاب ٢ / ٤٠
(٩٨) الكتاب ٢ / ١٦
(٩٩) الكتاب ١ / ٢٥٠
(١٠٠) الكتاب ٢ / ٤١٢
(١٠١) الكتاب ٢ / ٤١٢ وينظر المقتضب ٢ / ٣٠٦
(١٠٢) الكتاب ٢ / ٦٩ - ٧٠
(١٠٣) حاشية الكتاب ٢ / ٦٩
(١٠٤) الكتاب ١ / ٢٢٨
(١٠٥) الكتاب ١ / ٢٢٩
(١٠٦) الكتاب ١ / ٩٣ - ٩٤
(١٠٧) الكتاب ١ / ٤٣١
(١٠٨) الذاريات ٢٤ ، ٢٥
(١٠٩) مغني اللبيب ٢ / ٣٨٣

* المصادر والمراجع

١ - الاصول في النحو : ابن السراج البغدادي ، أبو بكر محمد ابن سهل ، (ت ٣١٦ هـ) تحقيق د . عبد الحسين الفتلي مطبعة النعمان - النجف الاشرف ١٩٧٣ (الجزء الاول) ومطبعة سلمان الاعظمي - بغداد ١٩٧٣ م (الجزءالثاني)

٢ - اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : نايف خرما - سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٧٨ م .

٣ - التفكير اللساني في الحضارة العربية : د . عبد السّلام المسدّي - الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٩٨١ .

٤ - التلخيص في علوم البلاغة : القزويني ، الخطيب ، جلال محمد بن عبد الرحمن ضبطه وشرحه الاستاذ عبد الرحمن البرقوقي المكتبة التجارية الكبرى ، مصر .

٥ - الخصائص : ابن جني ، ابو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٠ م مشروع النشر العربي المشترك - الهياة المصرية العامة للكتاب .

٦ - دلائل الاعجاز في علم المعاني : الجرجاني ، عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) تصحيح السيّد محمد رشيد رضا - الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٧ - شرح الكافية في النحو لابن الحاجب : الاستراباذي ، رضيّ الدين محمد بن الحسن (ت ٦٤٦ هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥ - ١٩٨٥ .

٨ - علم النفس اللغوي : عطية ، د . نوال محمد ، الطبعة الاولى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ، الناشر مكتبة الانجلو - المصرية .

٩ - في النحو العربي نقد وتوجيه : المخزومي ، د . مهدي (ت ١٩٨٩ م) منشورات المكتبة العصرية ١٩٦٤ م صيدا - لبنان - الطبعة الاولى .

١٠ - كتاب الرد على النحاة : القرطبي ، ابن مضاء ابو العباس احمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٩٢ هـ) دار المعارف ، القاهرة الطبعة الثانية .

١١ - كتاب سيبويه : سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠ هـ) تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٧ م ، الطبعة الثانية .

١٢ - اللغة والمعنى والسياق : جونز لاينز ، ترجمة د . عباس صادق الوهاب ، سلسلة المائة كتاب ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٧ م الطبعة الاولى .

١٣ - مغني اللبيب عن كتب الاعاريب : ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الانصاري (ت ٧٦١ هـ) تحقيق محيي الدين عبد الحميد مطبعة المدني - القاهرة .

١٤ - المقتضب : المبرّد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - عالم الكتب - بيروت .

١٥ - نحو المعاني : الجواري ، الدكتور احمد عبد الستار - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٦ - نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث : د . نهاد الموسى - المؤسسة العربية للدراسات والنشاط .

١٧ - النكت في تفسير كتاب سيبويه : الاعلم الشنتمري ، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت ٤٧٦ هـ) تحقيق زهير عبد المحسن سلطان ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، الطبعة الأولى ، الكويت - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .